المبحث الرابع

تطوُّر عقيدة النَّصارى

لقد تفرَّق النَّصارى بعد المسيح عليه السلام قلباً وقالباً، فالتَّلاميذ- كما مرَّ معنا - ذهب كلٌّ منهم إلى ناحية من الأرض يدعو إلى ما يؤمن به من اتجاه وفكرةٍ عَلِقَتْ في ذهنه مَّما سمعه عن المسيح عليه السلام، فكان له أتباعٌ وتلاميذ، فنسج لهم تعاليم المسيح نسجاً من ذاكرته، فأودعها كتاباً أسماه (إنجيل ربنا يسوع) ومن التَّسمية يظهر الغرض منها، ويتبَّين ما أصاب النَّصرانية من تحريفٍ وتبديلٍ. ونتج عن تشتُّت التَّلاميذ في الأرض تعدُّد الآراء والمعتقدات حول المسيح ابن مريم عليه السلام ورسالته في الحياة، وأصبح - في غفلة من العقل السَّليم - كلٌّ يدَّعي صواب رأيه، وصواب قوله.

يقول الجاحظ، وهو من هو في الذَّكاء والفطنة:

(ولو جهدت بكلِّ جهدك، وجمعت كلَّ عقلك أن تفهم قولهم في المسيح لما قدرت عليه، حتَّى تعرف حدَّ النَّصرانية،

وخاصة قولهم في الألوهيــة، وكيف تقدر على ذلك وأنت لو خلوت ونصرانيّاً نســطوريّاً فسألته عن قولهم في المسيح لقال قــولاً. ثمَّ لو خلوت بأخيــه لأمِّه وأبيه، وهو نســطوري مثله، فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف قول أخيه وضدِّه، وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية، لذلك صرنا لا نعقل حقيقة النَّصرانية كما نعرف جميع الأديان[1]).

ولقد اشــتهر من فــرق النَّصارى قديماً ثــلاث فرقٍ هي: النَّســطورية، اليعقوبية، الملكانية. وكلُّ فرقــةٍ من هذه الفرق الثَّلاث تُنســب إلى الرَّجــل الَّذي نادى بمبدئهــا أو دعا إليه، ويكــون في الغالب مخالفاً في دعوته ما كان ســائداً من الآراء والمعتقدات حول حقيقة المسيح.

فالنَّســطورية: نســبةً إلى (نســطور) الَّذي كان من بطاركة القســطنطينية، قال: إنَّ مريم وَلَدَتْ الإنســان فقط، فهو بذلك يُنكر ألوهية المسيح. فانعقد بسببه مجمع (أفسس) سنة ٤٣١م وقرَّر لعنه وطَــردُه، وأعاد المجتمعون القول: إنَّ مريم العذراء ولدَت الإنسان الإله.

(١) راجع كتاب ثلاث رسائل للجاحظ. تحقيق فنكل. ص٢٢.

والنَّسطوريون يسمَّون (الكلدان) يسكنون فيما بين النَّهرين، وفي الهند، وفي بلاد العجم.

واليعقوبية: نسبةً إلى يعقوب البراذعي، يقولون: إن المسيح ذو طبيعةٍ واحدة، قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكوَّن من الاتِّحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والنَّاسوت. وهذا المذهب كان قد أعلنه بَطْرِيَرْك الإسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، وما يعقوب البراذعي إلا داعية نشط أعاد القول بهذا المذهب، وجعل له شيعة مرتبة، وذلك في القرن السَّادس للميلاد.

وانعقد بسبب هذه المقالة مجمع (**خليكدونية**) سنة ٤٥١م الذَّي تقرَّر فيه أنَّ المسيح ذو طبيعتين.

والملكانية: نسبةً إلى أحد ملوك الرُّوم الَّذي اعتنق النَّصرانية، وقال بمقالة (يوحنا مارون) الَّذي تنسب إليه المارونية. وهي أنَّ المسيح ذو طبيعتين، ولكن إرادته ومشيئته واحدة. فانعقد بسببه مجمع (**القسطنطينية**) سنة ٦٨٠م الذي قرَّر أنَّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين.

ومـــن الآراء والمعتقدات الأخرى لـــدى النَّصارى حول حقيقة المسيح ما يأتي:

قول **البربرانية (الريميتين)**: إنَّ المســـيح وأمه إلهان من دون الله.

وقول **ســـابليوس**: إنَّ المســـيح من الأب بمترلة شـــعلة نارٍ انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثَّانية عنها.

وقول **البيان**: لم تحبل مريم بالمسيح تسعة أشهرٍ، وإنَّما مرَّ فـــي بطنها كما يَمُرُّ الماء في الميـــزاب؛ لأنَّ الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث الولد من ساعتها.

وقول **بولس الشَّمشاطي** من بطاركة أنطاكية، ويعرف أشياعه (وبالبوليقانيين): إنَّ المسيح إنسانٌ خلق من اللاهوت كواحد منَّا فـــي جوهره، وأنّ ابتداء الابن من مريم وأنَّه اصْطُفِيَ ليكونُ مُخَلِّصاً للجوهر الإنســـي، صحبته النِّعمة الإلهية، وحلَّت فيه بالمحبَّة والمشيئة، ولذلك سمِّي ابن الله.

واللـــه جوهر قديمٌ واحدٌ، وأقنومٌ واحدٌ، ويســـمُّونه بثلاثة أسماء، لايؤمنون بالكلمة ولابالرُّوح القدس.

قول مرقيون: إنَّ الآلهة ثلاثة: صالحٌ وطالحٌ وعدلٌ بينهما.

قول بولس اليهودي: إنَّ المسيح إله.

قول أريوس: الأب وحده الله، والابن مخلوقٌ مصنوعٌ، وقد كان الأب إذ لم يكن الإبن. فقد أقرَّ بوحدانية الله منكراً ما جاء في الأناجيل من ألوهية المسيح.

وقد كان لرأي (أريوس) صدىً كبير بين صفوف النَّصارى حينذاك. فأنعقد بسببه مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥م الَّذي يُعدّ أكبر وأخطر المجامع الَّتي عُقدت من قَبْلِه ومن بَعْدِه على الإطلاق. فقد أقرَّ أعضاؤه فيه مبدأ الشِّرك بوصفه أساسًا في الدَّين النَّصراني عندما قالوا بألوهية المسيح،وبأنَّه جوهر الله، وأنَّه قديمٌ، لا يعتريه تغييرٌ ولا تحويلٌ.

ويُحرِّمُون القول بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وأنَّه لم يوجد قبل أن يولد، وأنَّه وجِدَ من لا شيء، وأنَّه وجد من جوهر الأب، أو أنَّه خُلِق، أو أنَّه قابلٌ للتَّغيير، أو يعتريه ظِلُّ دوران.

وقد حكم المجتمعون على(أريوس) باللَّعن والطَّرد. وانتصر الملك قسطنطين لهذا المبدأ الباطل؛ لكونه حديث

عهد بالوثنية، وتمشـــياً مع الظُّروف السِّياسة السَّائدة حينذاك. فآزره وأيَّـــد القائلين به بأن منحهم خاتمه، وســـيفه تعبيرا عن إطـــلاق أيديهم فـــي الرَّعية، ففرضوا هذا المبـــدأ الباطل على جميع النَّصارى الخاضعين لسلطان الرومان.

إلا أنَّ دعـــوة (أريـــوس) بقيت يدعو بهـــا الموحِّدون في الخفاء.

وقد حدث نتيجة اضطراب هذه الآراء والمعتقدات حول حقيقة المسيح عليه السلام وتعدُّدها انشقاقٌ في النَّصرانية بوصفها دينًا، ما أدَّى إلى وجود كنيستين للنَّصارى: الأولى شرقية مركزها قسطنطينية بتركيا وتسمَّى **الأرثوذكسية**، يرأسها بطريرك، لها في كلِّ بلدٍ شرقيٍّ كنيسةٌ يرأسها بطريرك مستقل يخضع لبطريرك القسطنطينية خضوعاً أدبيّاً. يؤمنون بأنَّ الرُّوح القدس من الأب وحده.

والثَّانيـــة غربيةٌ مركزها روما بإيطاليا، وتســـمَّى الكنيســـة **الكاثوليكية** الرُّومية، يرأســـها البابا، وهو بطريرك يدَّعي السِّيادة على جميع الكنائس في العالم.

يقولون: إنَّ الرُّوح القدس منبثق من الأب والابن معًا.

وقد وقعت حروبٌ بين أنصار الكنيستين، فغزا الغربيون الشَّرقيين، وهو ما يُعرف بالحروب الصَّليبية سنة ١٢٠٤م. انتصر الغربيون فيها، فأوقعوا بالشَّرقيين مذابح عظيمة، واستولوا على أماكنهم حتَّى تمكَّن المسلمون من صدِّهم عن بلاد الشَّام. وكسبت الكنيسة الغربية من انتصارات مؤيِّديها قوَّة ذاتية، وأصبح لها نفوذ على نصارى أوروبا وبعض نصارى آسيا وأمريكا، فاشتدَّ ضغطها على المسيحيين، وحاربت كلَّ فكرٍ علميٍّ يبحث في العلوم الكونية بما يخالف رأيها، واعتبرت صاحبه كافراً يستحقُّ الحرق، وقد أنشأت لذلك محاكم للتَّفتيش يمثُل أمامها كلُّ من يتَّهم بأنَّه يقول برأيٍ يخالف ما تؤمن به الكنيسة. فتعرَّض كثيرون من النَّصارى إلى التَّعذيب البشع حتَّى الموت. ولقد امتدَّ نفوذ الكنيسة حتَّى بلغ الملوك والأمراء، فليس لأيِّ ملكٍ سلطانٌ على البابا، وللبابا سلطانٌ على كلِّ ملكٍ؛ لكونه مسيحيّاً، والبابا خليفة المسيح على الأرض، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح وحارب دينه.

ولقد اختصَّت الكنيسة نفسها بحقِّ فهم الكتب المقدَّسة (الأناجيل) وتفسيرها، وحرم ذلك من قبلها على الغير، مهما

كان راجح العقل ثاقب البصيرة. وإذا مـــا التبس على النَّصراني أمرٌ من أمور دينه فعليه أن يشكَّ في عقله ولا يشكَّ في قول البابا.

ومن ذلك مسألة استحالة الخبز إلى جسد المسيح، والخمر إلى دمه، فيما يسمَّى عندهم (بالعَشَاء الرَّباني) فمن أكل وشرب فقد جعل المسيح في جسمه بلحمه ودمه؟!.

ولعلَّ مســـألة امتلاك الكنيســـة حقَّ الغفـــران لرعاياها من أكثر الأمور نفورًا منها. فقد ابتدعت الكنيسة في روما صكوكًا أســـمتها (**صكوك الغفران**)[1] تباع لمـــن يدفع قيمتها فيصبح في حِلٍّ من جميع ذنوبه ما كان منها وما سيكون.

وقد نتج عن هاتين المســـألتين وغيرهما في القرن السَّـــادس عشر ما يعرف بعصر النَّهضة أو الإصلاح الدِّيني، إذ برز بين رجال الدِّين المســـيحي وغيرهم من المسيحيين من يندِّد بتلك الأفكار وبذلك التَّحكُّم التَّعسفي، ويدعو إلى وضع حدٍّ لسلطة البابوات.

---

(١) جـــاء في كتاب محاضرات في النصرانية لمحمَّد أبـــو زهرة. ط٣ ص ١٨٤. صورة من صكِّ الغفران، نقتبس منها ما يأتي: «...وإنَّ بالسُّـــلطان الرَّســـولي المعطى لي أحلّلك من جميع القصاصات والأحكام والطَّائلات الَّتي استوجبها، وأيضًا من جميع الإفراط ولخطايا والذُّنوب الَّتي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة...وأردُّك ثانية إلى الطَّهارة والبرِّ الَّلذين كانا لك عند معموديتك...وإن لم تمت ســـنين مستطيلة فهذه النِّعمة تبقى غير متغيِّرة حتَّى تأتي ساعتك الأخيرة...».

واشتهر من بين أولئك الَّذين يدعون إلى الإصلاح (مارتن لوثر) من أصلٍ ألمانيٍّ (وكلفن) من أصلٍ سويسري، اللذان عرف أتباعهما فيما بعد (بالبروتستانت) أي:المحتجُّون. وأنشؤوا كنائس خاصة بهم انتشرت في أوروبا وأمريكا، وتتمتَّع كلُّ كنيسة باستقلال ذاتي عن البابا، وتختلف عن بعضها في عقيدتها اختلافًا جذريًّا لا يشارك بعضهم بعضًا في أداء الطقوس الدينية، وأسموها الكنائس الإنجيلية، أي: الَّتي تسير وفق ما جاء في الأناجيل، دون الخضوع لأي رأي من أي إنسان يخالف ما جاء في الأناجيل، حتى إن كان قرارًا من مجمع مسكوني.

ومن أشهر تلك الكنائس (البروتستانتية): الكنيسة (اللُّوثَرية) ومركزها ألمانيا الغربية،ولها فروعٌ في أكثر أنحاء العالم الغربي المسيحي، وبعض دول الشَّرق كاليابان والفلبِّين. وهي لا تلتزم بالنِّظام الكهنوتي بين رجال الكنيسة. والكنيسة (الإنجليكانية) ومركزها مدينة (كنتبري) في مقاطعة (كنت) بإنجلترا. وهي لا تلتزم بالنِّظام الكهنوتي بين رجال الكنيسة المتسلسل عن تلاميذ عيسى. ولها فروعٌ في جميع الدُّول الَّتي استعمرتها بريطانيا.

أمَّا الأغلبية العظمى من المسيحيين اليوم، وخاصة الشباب، فقد تركوا النَّصرانية ولا يدينون بأيِّ دينٍ آخر، وأصبحوا يعيشون في فراغٍ روحيٍ كبيرٍ، يشعرون به كلَّما وجدوا وقتاً للفراغ من الحياة المادية الصَّاخبة الخالية تماماً من الرُّوحانيات الَّتي تملأ في العادة خلايا النَّفس، وتبثُّ فيها نوعاً من الأمل الَّذي يكون بمثابة قوَّة دفعٍ في الإنسان إلى ما هو أحسن. فكثيرًا ما تلجأ الغالبية منهم عند تعرُّضهم لأدنى مصيبةٍ أو فشلٍ إلى الإنتحار للتَّخلُّص من الحياة الَّتي يحيونها، وما ذلك إلا نتيجة لقلَّة الإيمان، والرُّكون إليه في نفوس أكثرهم.

ولقد تعرَّض المجتمع المسيحي في أوروبا وأمريكا وغيرهما من دول العالم إلى نوعٍ من الانحلال الخلقي، كتعاطي المخدِّرات على نطاقٍ واسعٍ بين الشَّباب من الجنسين، وكإقرار مبدأ الإباحة الجنسية بين الرَّجل والمرأة بشكلٍ مفضوحٍ مبتذلٍ تتحاشاه أدنى المجتمعات البدائية ثقافة، وما ذلك إلا هروباً من الواقع الَّذي يحيونه المليء بالمتناقضات في الأقوال والأفعال من رجال الدِّين المسيحي وما يبثُّونه من أفكارٍ ومعتقداتٍ تنفر منها العقول المثقَّفة وكلُّ من لديه أدنى تفكيرٍ.